جوانب إنسانية

عند الرصافى

١

تتردد على الأفواه وفى كتابات النقاد كلمة « الإنسانية » غير محدودة الدلالة ، ولا محصورة الفكرة ، فقد تدل على كل مايقترن فى أذهاننا من السمو بالحياة البشرية ، وأن تجتاز كل العقبات التى تقف فى طريقها ، بحيث تعم فى العالم وحدة إنسانية لا تكيّفها حواجز من وطن أو جنس ، ولا تحدها عصبيات من دين وغير دين .

وبذلك تصبح الإنسانية نزعة عالمية ، يريد أصحابها أن تعم العالم كله روابط واحدة ؛ فلا أبيض ولا أسود ، ولا شرقى ولا غربى ، ولا مسلم ولا مسيحى ، فالعالم يهدف إلى الاتحاد . كان أسرة ، ثم كان قبيلة ، ثم أصبح أمة ، ولا بدّ أن تتلاصق وحداته ، فتذوب كل عنصرية ، وتذوب كل عصبية ، ويصبح الناس إخوة فى نطاق واسع من الإنسانية ، لا تحده غير السماء والأرض .

وينساق أصحاب هذه النزعة فى الدعوة إلى الخير ، وتراهم يكثرون من بكاء الإنسانية لأن قوافلها ضلت طريقها ، وهى تدفع ثمن هذا الضلال بما تنحره من أبنائها على مذبح الحروب ، وما تسفكه من دمائهم . ولا ريب فى أن هذه مثالية ، وأنها تحلّق فى خيال بعيد لعالم لا يمكن أن يتحقق فى الأرض ، وفى الناس من طينها ومن شرورها ومن نزعات الأنانية مايغرى كل أمة أن تكون لها بقاع الأرض من دون أخواتها وجيرانها .

وما أشبه هذه النزعة بنزعة التصوف ، فكلاهما حلم وخيال : يحلم

الصوفى بربه ، ويحلم الإنسانى بعالم لا يمكن أن يراه ، ومع ذلك فهو يكثر من التفكير فيه والتعلق به ، حتى يظنه حقيقة من الممكن أن تقع تحت بصره ، فما يزال يهيب بالناس والأمم أن يقفوا ليتأملوا معه ، فيبصروا العالم الحق ، ويفروا إليه من عالمهم ، عالم الآلة والشر .

وهو حلم صوفى جميل ترتفع أثناءه كلمة النزعة الإنسانية ، وتهيم فى أجواء سحرية غامضة . وقد تسقط من هذه الأجواء وتقترب من أرضنا ، بل قل تنزل فيها لتدل دلالات أخرى يفهمها الإنسان الواقعى الذى لا يعيش فى عالم الرؤى ، وإنما يعيش فى دنيا الواقع المحسوس . ومن هذه الدلالات ما يرتبط أشد الارتباط بالدلالة المثالية السابقة مع ارتباطه بالحقيقة الملموسة ، ونقصد فكرة الرحمة بالضعيف ومواساة العاجز الفقير ، فهذه الفكرة إنما يريد أصحابها أن يرتقوا بحياتنا البشرية ، فيعم بين الناس فيها دفع الضرر عن إخوانهم ، وأن يتعاطفوا معهم تعاطف الأخ مع أخيه ، فلا يكون هناك بائس ولا بؤس ، ولا حاقد ولا حقد ، وإنما يكون التآزر والتعاون بين الناس حتى كأنهم جسد واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ومن الممكن أن ندخل فى هذه الدلالة الإنسانية محبة الانسان لوطنه ، إذ تقوم هذه المحبة فى بعض جوانبها على الاعتزاز بالمواطن ، وأن تكون له الحقوق الانسانية المشروعة من حرية وغير حرية . وأيهما أشد وقعا على النفس أن ترى شخصا متألما ، قد سجن كالطائر فى قفص من الفقر والحرمان ، أو ترى شعبا قد شُدَّ بأسره فى أغلال الذل والهوان ، شدته أمة متوحشة لا ترى فى مرآة الأرض سوى نفسها وطموحها وآمالها وغايات أهلها ؟ ألا إن هذه المرآة الكاذبة ينبغى أن تحطم ، وأن يسترد الشعب الأسير حقوقه التى أعطاه الله إياها .

وقد تدل كلمة الإنسانية دلالة واقعية مطلقة ، إذ يُراد بها أن

يصور صاحبها الإنسان بكل مافيه من نقائص ومعايب . فهو إنسانى النزعة ، أى أن مساوىء الإنسانية ومحاسنها تتضح فيه وفى أدبه ، بمعنى أنه لايخفيها ، بل يجلّيها فى أتم معانيها .

وهناك دلالة أخرى تقابل هذه الدلالة وتناقضها ، إذ تدل الكلمة على الإيمان بالإنسان وعقله إيمانا لاحد له ، فالشخص الذى يؤمن بالملكات الإنسانية ، ولا يعتقد فيما وراء المنظور الملموس منها شخص إنسانى النزعة ، لايعتقد بقوى خارقة وراء عالمه الإنسانى .

ونرى من ذلك أن كلمة « الإنسانيه » واسعة الدلالة ، وأن من الممكن أن تُفْهَم بمعان كثيرة ، غير أن المعتاد بين النقاد ، وخاصة إذا تحدثوا فى الشعر والنثر ، أن يقفوا منها عند الدلالتين الأولى والثانية ، وقلما فكروا فى دلالات أخرى .

٢

ولم يكن شىء من هاتين الدلالتين الموصوفتين يقع فى شعرنا القديم والوسيط إلا فى الندرة ، سوى ما عرف به أبو العلاء فى لزومياته ، إذ نجد عنده نزعة إنسانية كاملة ، أمام عاشوا حوله ومن قبله وبعده ، فقلما تجاوزوا أنفسهم ، إذ غلبت عليهم العواطف الفردية الذاتية ، ولم ينظروا فى أمر من أمور الجماعة ، ولا فى أزمة من أزماتها .

حتى إذا كنا فى العصر الحديث واعتدنا التفكير فى شئوننا السياسية والاجتماعية أخذنا وأخذ شعراؤنا معنا يفكرون فى جوانب النقص الشائعة فى حياتنا . وبذلك انفك الشعر من القيود الذاتية ، وأخذ يسبح فى أجواء جديدة ، بعضها سياسى وبعضها اجتماعى ، وهى أجواء لونته ألوانا حديثة ، فلم تعد الألوان القديمة التى تنبع من مزاج الشاعر هى كل مايلوّن شعره ، بل

امتزجت بها ألوان أخرى ترجع فى جملتها إلى أن شعراءنا وجدوا شعوبهم متخلفة ، بل مستعمرة ، قد أنكر عليها الأوربيون حقوقها السياسية .

وقد رأوا المستعمر يحول بين الشعب وبين ما ينبغى أن يتمتع به من حرية ، فجأروا بالشكوى ، ونادوا فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه ، إننا نريد أن نعيش عيشة شريفة ، ، عيشة حرة كريمة ، ونادى معهم الرصافى :

إذا لم يَعِشْ حُرًّا بموطنه الفتى ... فَسَمِّ الفتى مَيْتاً وموطنه قَبْرا
أحرِّيَتى إنى اتخذتك قِبْلةً ... أوجِّه وجهى كل يوم لها عَشْرا
وأُمسِك منها الرُّكْنَ مستلماً له ... وفى ركنها استبدلت بالحجر الحِجْرا

فهو يرى أن الحياة ليست شيئا بدون الحرية ، وهى حرية اعتنقها كل شعرائنا فى العصر الحديث وتعلقوا بها ، إذ وجدوا فيها حقهم الإنسانى الأول ، بل حق الجماعة التى عاشوا معها ، وأخلصوا لها وتغنوا آلامها .

ونظروا فرأوا فى هذه الجماعة ضربا من العنصرية الدينية ، فألحوا على هدمه ونقض حائطه الذى يفصل بين أبناء الأمة الواحدة ، وخاصة بين المسلمين والمسيحيين لما بينهم من الصلات الوطنية ، وما ينبغى أن يسود بينهم من الإخاء والمحبة ، وفى ذلك يقول الرصافى :

أما آن أن تنسَى من القوم أضغانُ ... فيُبْنَى على أسِّ المؤاخاة بنيانُ
أما آن أن يُرْمَى التخاذل جانبا ... فتكسب عِزًّا بالتناصر أوطان
علام التعادى لاختلاف ديانة ... وإن التعادى فى الديانة عدوان
وما ضَرَّ لو كان التعاون دِينَاً ... فتعمر بلدان وتأمن قُطَّان
إذا جمعتنا وحدة وطنيةٌ ... فماذا علينا أن تَعَدَّد أديان
إذا القوم عمَّتْهُمْ أمور ثلاثةٌ ... لسانٌ وأوطان وبالله إيمان
فأىّ اعتقاد مانعٌ من أخوة ... بها قال إنجيلٌ كما قال قرآن
كتابان لم يُنزلهما الله ربنا ... على رُسْله إلا ليسعد إنسان

فمن قام باسم الدين يدعو مفرّقا فدعواه فى أصل الديانة بهتان
أنشقى بأمر الدين وهو سعادة؟ إذن فاتباع الدين ياقوم خسران

ونجد لهذه الدعوة نظائر عند شعراء مصر والشام ، إذ أخذ الشعراء ينادون بالتحرر من عبء الاختلاقات الدينية وما يبذره المفسدون من بذور الشقاق بين عناصر الأمة باسم الدين ، والدين فى جوهره براء مما يبذرون ويفسدون ، إذ يقوم عند المسلمين والمسيحيين جميعا على التسامح والأخوة .

وعلى هذا النحو بعثت حياتنا السياسية فى العصر الحديث مشاعر جديدة فى نفوس شعرائنا لم يكن أسلافهم يألفونها ، ولم تكن ينابيعها تتفجر فى قلوبهم لسبب بسيط ، وهو أن الشعراء لم يكونوا يفكرون فيما حولهم ، ولم تكن مشاكل المجتمع ولا مشاكل البشرية ميدانا لأقلامهم . فلما خرجنا من عصورنا الوسطى ووجدنا أنفسنا بإزاء مشاكل إنسانية مختلفة ، أخذ شعراؤنا يوجّهون إليها نشاطهم الفكرى ، وأخذت تعمل فى صميم قلوبهم .

فإذا شاعرنا لا يعيش لنفسه ، وإنما يعيش لمواطنيه ، وقد يمتد بصره إلى أعلى فيعيش للإنسانية كلها ، وهو فى ذلك جميعه ينفصل من عالم الوحدة والفردية ، ويلحق بمحيط أوسع من الناس ممن حوله وممن هم بعيدون عنه . وحرىٌّ أن يفكر أول ما يفكر فيمن يعيش معهم وفى آلامهم ونقائصهم وأن يهب لهم شعره ، وأن يجعله منفذا للتعبير عن حقوقهم الإنسانية من جهة ، وكاشحا لما يراه فيهم من معايب من جهة أخرى . وكأنه يريد أن يجمع شتات أمته من جديد ، وأن يكون لهذا الشتات كل الصفات التى ترفعه فى تاريخ الإنسانية التى يسعى العالم كله إلى تمجيدها والرقى بها . فهو يستخلص لشعبه كل الميزات التى تحيله شعبا ممتازا فى خلقه وروحه وعقله ، ولعله من أجل ذلك كان الرصافى يشيد دائما بالعلم ويدعو إلى إعطاء المرأة حقوقها ، فهو يريد أن يزيل كل الحواجز التى تعوق شعبه عن النهوض والوقوف على قدميه بين شعوب

العالم . وتتراءى فى تضاعيف ذلك رغبة قوية فى الإصلاح الاجتماعى . من ذلك أن تراه يقف فى وجه الطلاق والاتساع به ، وقصيدته «المطلقة» من خير القصائد التى تصور عيوب هذه المشكلة . وخاصة حين تطلق المرأة بدون ذنب جنته يدها . يقول واصفا لحالها ، ناعيا هذه السوءة الاجتماعية :

بدت كالشمس يحضنها الغروبُ ... فتاةٌ راعَ نضرتها الشحوبُ
منزهة عن الفحشاء خودٌ ... من الخفرات آنسةٌ عَرُوبُ (١)
نوارٌ (٢) تستجدّ بها المعالى ... وتبلى دون عِفَّتها العيوب
صفا ماءُ الشباب بوجْنَتيْها ... فحامتْ حول رونقه القلوبُ
ولكن الشوائبَ أدركتْه ... فعاد وصفوه كدرٌ مشوبُ
حليلة طيّب الأعراق زالت ... به عنها وعنه بها الكروب
رعى ورعت فلم تر قطّ منه ... ولم يَرَ قطّ منها مايريب
فغاضب زوجها الخلطاءُ يوما ... بأمر للخلاف به نشوب
فأقسم بالطلاق لهم يمينا ... وتلكَ ألِيَّةٌ (٣) خطأ وحُوبُ
وطلقها على جهل ثلاثاً ... كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاق طلاق بتٍّ (٤) ... ذوو فُتْيا تعصّبهم عصيب
فبانت عنه لم تأت الدَّنايا ... ولم يعلق بها الذّامُ المعيب
فظلت وهى باكية تنادى ... بصوت منه ترتجف القلوب
لماذا يا لبيبُ صرمْتَ حبلى ... وهل أذنبت عندك يا لبيبُ
أَبِنْ ذنبى إلىّ فدتك نفسى ... فإنى عنه بعدئذ أتوب
لئن فارقتنى وصددتَ عنى ... فقلبى لا يفارقه الوَجيب

---

(١) العروب . المرأة المتحببة إلى زوجها .
(٢) النوار : المرأة النفور من الريبة .
(٣) الألية : القسم . الحوب : الذنب والإثم .
(٤) الطلاق البت : الطلاق البائن بدون رجعة .

فأطرق رأسه خجلا وأغضى ... وقال ودمعُ عينيه سكوب
لبيبةُ أقصِرى عنى فإنى ... كفانى من لظى الندم اللهيبُ
وما والله هجرُك باختيارى ... ولكن هكذا جرت الخطوب
فليس يزول حبّك من فؤادى ... وليس العيش دونك لى يطيب

والرصافى يطيل من المحاورة بين الزوجين ليرينا آفة هذا الطلاق الزائف، وكِبَرَ هذا الخطأ الذى يقع فيه بعض أصحاب الفتوى من رجال الدين، إذ يطلقون باليمين اللغو يجرى على لسان الزوج دون أن يقصده قصدا، فتفصم عُرْوَةُ زواج وثقته محبة وعفة، وما يزال حتى يقول:

ألا قُل فى الطلاق لموقعيه ... بما فى الشرع ليس له وجوبُ
غلوتم فى ديانتكم غُلوًّا ... يضيق ببعضه الشرعُ الرحيبُ
أراد الله تيسيرا وأنتم ... من التعسير عندكمُ ضروب
وقد حلّتْ بأمّتكم كروب ... لكم فيهن لا لهم الذنوب
وهَى حَبْلُ الزواج ورقّ حتى ... يكاد إذا نفختَ له يذوب

وهو فى كل ذلك تساقط نفسه حسرات لهذه المطلقة، وإنه ليدعو أن تقف هذه العادة الآثمة بل إنه يصرخ فى وجوه الفقهاء ورجال الدين أن يعودوا إلى صوابهم، فيبطلوها إبطالا ويلغوها إلغاء. وتتردد مثل هذه الصيحة الإنسانية فى كثير من جوانب الديوان.

٣

وكان الرصافى حساسا شديد الحساسية رقيق الشعور، فكاد لا يترك منظرا مؤثراً لمنكود أو منكوب إلا رسمه بريشته رسما حزيا يبعث الشجا والأسى فى النفس، وكان يعرف كيف يَصِفُ ما انطوى عليه قلب المكروب

من أفكار وآلام . وهذه قصيدته « الأرملة المرضعة » من خير الأدلة على ما نزعم : يقول :

لقيتُها ليتني ما كنت ألقاها ... تمشي وقد أثقل الإملاقُ مَشْاها
أثوابها رثّةٌ والرِّجْلُ حافيةٌ ... والدمعُ تذرفه في الخدّ عيناها
بكتْ من الفقر فاحمرّت مدامعها ... واصفرّ كالورْسِ من جوعٍ محيّاها
مات الذي كان يحميها ويُسْعدها ... فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
الموتُ أفجعها والفقر أوجعها ... والهمّ أنحلها والغمّ أضناها
فمنظرُ الحزن مشهودٌ بمنظرها ... والبؤس مرآه مقرونٌ بمرآها
كرُّ الجديدين قد أبلى عباءتها ... فانشقّ أسفلها وانشقّ أعلاها
ومزّق الدهر، ويل الدهر، مئزرها ... حتى بدا من شقوق الثوب جَنْباها
تمشي بأطمارها والبرد يلسعها ... كأنه عقربٌ شالتْ زُباناها
حتى غدا جسمها بالبرد مرتجفا ... كالغصن في الريح، اصطكت ثناياها
تمشي وتحمل باليسرى وليدتها ... حملا على الصدر مدعوما بيمناها
قد قمّطتْها بأهدام ممزقة ... في العين مَنشرُها سَمْجٌ ومطواها
ما أنس لا أنس أني كنتُ أسمعها ... تشكو إلى ربها أوصابَ دنياها
تقول يارب ! لا تترك بلا لَبَنٍ ... هذي الرضيعةَ وارحمني وإياها
يارب ! ماحيلتي فيها وقد ذبلتْ ... كزهرة الروض فقدُ الغيث أظماها
ماباها وهي طول الليل باكيةٌ ... والأم ساهرةٌ تبكي لمبكاها
يكاد يفقدّ قلبي حين أنظرها ... تبكي وتفتح لي من جوعها فاها
ويُلمّها طفلةً باتت مروّعةً ... وبِتُّ من حولها في الليل أرعاها
تبكي لتشكوَ من داءٍ ألمّ بها ... ولست أفهم منها كنْهَ شكواها
كانت مصيبتُها بالفقر واحدةً ... وموت والدها باليتم ثنّاها

والقصيدة لوحة رائعة لأرملة فقيرة، تمزقت عليها ثيابها، ولم يعد لها

ما يحميها من البرد بل من العُرى ، ولم يعد فى ثديها ما ترضع به وليدها . يالبؤس الحياة ! ويا لمرارتها فى فمها بل فى فم الرصافى الذى ذهب يجلو علينا هذه الصورة الكئيبة! وقد تعاون الدهر والفقر فى إخراجها على شاكلة تنقدُ لها القلوب وتحس ألما ولوعة ، بل تحس لذعا وكيًّا . ويمضى فيذكر أنه أعانها ببعض دراهم يملكها ، فأنَّتْ ، وأجهشت بالبكاء ، ونفثت زفرات من جوانحها . ثم قبلت ما أعطاها شاكرة مثنية على خلقه ، متمنية أن يعم فى الناس حِسٌّ مثل حسه وعطف مثل عطفه . إذن لم تكن هناك أرملة تشكو شكواها وتسودُّ الدنيا فى عينيها وتظلم على نحو ما اسودت أمامها وأظلمت .

ويظهر أن نفس الرصافى كانت تنطوى على كثير من المروءة والحنان والشفقة ، فكان دائم التفكير فى هذه الطبقة الشقية المحرومة التى نبذها المجتمع ، فلم يُصِرْها عنايته ولم يولها اهتمامه ، حتى النقود القليلة ضَنَّ بها عليها وشحت نفسه . وتحول الرصافى إلى ما يشبه بوقا ، فهو ينفخ فى الناس لعلهم يبصرون ما تحت أعينهم من آلام مشجية وأوجاع مضنية . واستعان فى ذلك بمواقف مختلفة ، تارة يختار أرملة ترضع طفلا ولا تجد كساء ولا قوتا يدرّ لها لبنا ، إنما تجد الشقاء والعذاب والمسغبة ؛ وتارة أخرى نراه يختار أختا لها فقدت زوجها وكبر يتيمها ، وطلع عليهما العيد ، وأطل صباحه وكأنه وجه نحس يرسل عليهما شواظا من البؤس والحزن . وينظران فيبصران الناس من حولهما فرحين مسرورين يدقون طبول العيد ، أما هما فكسيران تاعسان يبكيان :

وحَقَّ لسلمى أن تنوح فإنها من العيش سمًّا ناقعاً تتجرَّع

وينادى فى قومه أن أغيثوهما ، وكفى ما ذقنا فى بلادنا من الظلم والهوان ، وما يزال يستثير مَنْ حوله حتى يكتتبوا لمثل هذا اليتيم وأمه .

ولم يقف عند أرامل المسلمين ويتاماهم فحسب ، فقد ذهب يشارك يتامى

الأرمن وأراملهم بؤسهم حين أنزل عليهم الترك جام غضبهم فى فتنة « أطنة » ، وصوَّرَ ذلك فأبدع فى تصويره ، إذ يقول فى قصيدته « أم اليتيم » :

رمتْ مسمعى ليلا بأنَّة مؤلمِ ... فألقتْ فؤادى بين أنياب ضيغمِ
وباتتْ توالى فى الظلام أنينها ... وبت لها مُرْمًى بنهشة أرْقَمِ
إذا بعثتْ لى أنَّةً عن توجعٍ ... بعثتُ إليها أنَّةً عن ترحم
تقطِّع فى الليل الأنين كأنها ... تقطِّع أحشائى بسيفٍ مثلَّمِ
وما خفقان النجم إلا لأجلها ... وما الشهبُ إلا أدمعُ النجم ترتمى
لقد تركتْنى موجعَ القلب ساهرا ... أخا مدمعٍ جارٍ ورأسٍ مهوِّمِ

ثم يصف بيتها ، وكيف أعولت فيه النحوس ، وألقت به الأيام أثقال بؤسها ، ويقول إنه دخل فى الصباح البيت ، ليستطلع نبأ هذا الأنين ويعرف مبعثه ومأتاه ، فرأى جسما ضعيفا نهكته همومه ، وحوله صغير لم يجاوز الخمس من عمره ، يبكى من ألم الجوع ، وهى لا تجوده إلا بالدموع ، فلما أحس بالشاعر توجه إلى أمه مخاطبا :

سَلِى ذا الفتى يا أمُّ أين مضى أبى ... وهل هو يأتينا مساءً بمَطْعَمِ
فقالت له والعين تجرى غروبها ... وأنفاسها يَقْذِفْنَ شعلةَ مُضرَمِ
أبوك ترامتْ فيه سَفْرَةٌ راحل ... إلى الموت لا يُرْجَى له يومُ مَقْدَمِ
مشى أرمنيًّا فى المعاهد فارتمتْ ... به فى مهاوى الموت ضربة مسلمِ
على حين ثارتْ للنوائب ثورةٌ ... أتتْ عن حزازات إلى الدين تنتمى
فقامت بها بين الديار مذابحٌ ... تخوَّض منها الأرمنيون بالدم
ولولاك لاخترتُ الحِمامَ تخلصا ... بنفسىَ من أتعاب عيْش مذمَّمِ
فأنت الذى أخرْت أمك مَرْيما ... عن الموت أن يودِى بأمك مريمِ
أمريم ! مهلا بعضَ ما تذكرينه ... فإنك ترمين الفؤاد بأسْهُمِ
أمريم ! إن الله لا شك ناقمٌ ... من القوم فى قتل النفوس المحرَّمِ

فليس بدينٍ كلُّ ما يفعلونه ... ولكنه جهلٌ وسوءُ تفهم
لئن ملئوا الأرض الفضاءَ جرائما ... فهم أجرموا والدين ليس بمُجرم
ولكنهم في جُنْح ليلٍ من العمى ... تمشَّوا بمطموس العلائم مُبْهم
وظَلْتُ لها أبكي بعينٍ قريحةٍ ... جرتْ من أماقيها عصارةُ عَنْدَمِ
بكيتُ وما أدري أأبكي تضجرا ... من القوم أم أبكي لشقْوَةِ مريم

وهذه القصيدة تتيح لنا أن نستشف من خلالها اتساع العنصر الإنساني في شعر الرصافي ، فهو يتنازل عن حواجز الدين واللغة ، ليقف في صف الأرمن ، وكأنه يؤمن بوجوب تحرير الروح وإطلاق سراحها من قيود التعصب الديني . وهو في ذلك يقدم الجنس الإنساني على الفواصل المحلية التي تفصل بين جزئياته ،وتفرق بين وحداته ، أو قل إنه كان يتمنى أن تتحقق وحدة هذا الجنس على أسس من الأخوة والتعاطف ، فلا يكون هناك أرمني وتركي ولا مسيحي ومسلم ، بل يكون هناك الوئام والتجانس التام بين الأجناس والأمم والشعوب .

وما كان شيء يؤذي نفسه مثل الفقر والعوز ، وأن يشبع الغني ويلبس الإستبرق والحرير ، ويجوع الفقير ويَعْرَى ، وإن لبس لم يلبس إلا ثيابا أخلاقا ممزقة ، وما شِبَعُ الغني وثيابه إلا من عرق الفقير ومن جهده وكده وكفاحه ، يقول :

أرى كلَّ ذي فقرٍ لدى كلِّ ذي غِنىً ... أجيرا له مستخدَما في عقارِهِ
ولم يُعطه إلا اليسير وإنما ... على كدِّه قامت صروحُ يساره

وكأنه يرى الأغنياء جميعا تعاونوا على نهب حقوق الفقراء واغتصاب ما كسبته أيديهم ، وإنهم ليبنون قصورهم على كواهلهم ، ويقيمون مسراتهم وملذاتهم على أحزانهم وآلامهم ، وما بؤس البائس إلا جناية الغني ، وإلا ثمرة طمعه وجشعه ، وما يحوزه لنفسه دون أخيه الفقير .

وكثيرا ما اقترن الفقر فى ذهن الرصافى بالسقام والمرض ، وهو يرى الأول مؤذنا بالثانى مؤهلا له ، معدا للنزول فى أوصابه وأوجاعه . وقصيدته « الفقر والسقام » من أروع الأمثلة لهذا القران النكد المشئوم الطالع ؛ وفيها حكى قصة رجل معسر يسمى بشيرا كان يعمل أجيرا ، ويكسب لنفسه قوتا يسيرا ، شاكرا لربه راجيا حسن المآب ، وكان يعول أختا له يطعمها من كده فاعتراه داء المفاصل حتى عاقه عن العمل والاكتساب ، وأنفق كل ما ملكت يداه ، بل كل ما ربحته أخته فاطمة من غزلها قبل أن ينزل به الداء . وهنا نراه يناجيها أن تمرضه وتحرضه على العمل ! ولم تلبث أخته أن سعت إلى جارتها فشكت حالتها وحال أخيها ، فأعانتها ببعض ما سدَّا به رمقهما ، وألح المرض والفقر على بشير ، ومازالا به حتى فاضت روحه فى ليلة عاصفة من ليالى الشتاء . فبكت أخته وأعولت وولولت ، ولم تجد ما تكفِّنه به ، فظل مُلقى إلى أوان الزوال ، إذ جاد شخص عليه بعد سؤال بريال ونصف ريال ، فحمل إلى قبره على نعش أمثاله بدون ستر ولا زينة . ثم يروى الرصافى أنه مضى على موت بشير عامان ، وكان يمشى « بشارع الميدان » فأبصر نعشا ، نُقش البؤس عليه نقشا ، فسار وراءه مع السائرين ، فلما دفنوا البائس الفقير وقف يسأل من الذى دفن اليوم ؟ فتصدى له فتى :

قال : إن الدفينَ أختُ بشيرِ أخت ذاك المسكين ذاك الفقيرِ
بقيتْ بعده بعيش عسيرِ وبطرْف باكٍ وقلب كسيرِ
وقضتْ مثله بداء القُلابِ

قلت أقْصِرْ عن الكلام فحسبى منك هذا فقد تزلزل قلبى
ثم ناجيتُ والضراعة ثوبى ربِّ رحماك رب رحماك ربى
رب رشدا إلى طريق الصواب

رب إن العباد أضعفُ أن لا يجدوا منك ربِّ عفوا وفضلا
فاعْفُ عن أخذهم وإن كان عدلا أنتَ يارَبِّ أنتَ بالعفو أولى
منك بالأخذِ والجزا والعقابِ

قد وردنا والأرضُ للعيش حوضٌ واحدٌ كلنا لنا فيه خَوْضُ
فلماذا به مشُوبٌ ومحضُ عظمتْ حكمةُ الإله فبعض
فى نعيم وبعضنا فى عَذابِ

أيها الأغنياء كم قد ظلمتم نِعَمَ الله حيثُ ما إن رحمتم
سهر البائسون جوعاً ونمتم بهناءٍ من بعد ما قد طمعتم
من طعام منوعٍ وشراب

كم بذلتم أموالكم فى الملاهى وركبتم بها متون السفاهِ
وبخلتم منها بحق الإلهِ أيها الموسرون بعض انتباهِ
أفتدرون أنكم فى تبابِ

وهذه النهاية للقصيدة أو للقصة توضح مدى ما شغل به الرصافى نفسه من التفكير فى الإنسانية وسبل الخير والشر التى يسلكها بنو الإنسان ، ففى وفقير ، وسعيد وشقى . وإنه ليفزع إلى ربه يطلب منه الرحمة بالبشر ، حتى فى الموت والجزاء ، وإنه ليتساءل فيم هذا الاختلاف بين الناس ؟ ولماذا كان بعضهم فى نعيم وبعضهم فى عذاب ؟ .وإن ذلك ليشقى الرصافى ، بل لكأنه هو الشقى المحروم الذى يتعاه ، فالحياة مظلمة من حوله ، وروحه فى قلق دائم تريد للناس جميعا أن يكونوا سعداء ، وأن يزايل الشقاء البشر كلهم من مسلمين وغير مسلمين ، وهو لذلك يكثر من الأنين ، ومن دعوة الأغنياء إلى أن يمسحوا على بؤس البائسين . ولعل فى ذلك كله مايدل على أنه كان يحلم للناس وخاصة من مواطنيه بعالم سعيد ، فقد عاش يتغنى آلام التعساء المظلومين والأشقياء المحرومين .